



معالم الدرس التربوي التعليمي عند أبي الحسن اليوسي رحمه الله

أعلام تربوية

ذ. عبد العزيز تكني¹

معالم الدرس التربوي التعليمي عند أبي الحسن اليوسي من خلال
كتابه "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"

الحمد لله الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (سورة الرحمن، الآية 2-4)،
والصلاة والسلام على نبيِّنا العدنان، المربي الرحيم، والمعلم الحكيم، سيدنا محمد بن عبد الله، أفصح من
نطق بالضاد، وخير من جرى لسانه² بالعربية من ولدٍ معدٍ بن عدنان ويعزب بن قحطان، وعلى آله الأطهار،
وصحابتهم³ الأبرار، والتابعين لهم بإحسان ما اختلف الليل والنهار.

1- مقدمة:

يعد مشروع التربية والتعليم من المشاريع الفكرية التربوية التي برز فيها علماء الغرب الإسلامي
الفعول، وتفتق فيهم⁴ نظرهم الفذ، فكان لهم حظ وافر واعتناء شديد، ونصيب بارز في تعميق النظر فيهم⁵
تجديدا وإحياء، وقراءة ونقدا، وصيانة وحفظا، وهذا مما برز فيهم⁶ الإمام أبو الحسن علي اليوسي رحمه الله،
فمن خلال مشروعه⁷ الفكري عموما، وكتاب⁸ "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم" على
وجه⁹ الخصوص، ندرك أن حركة الإصلاح الفكري التربوي في التراث الإسلامي عامة والتراث المغربي خاصة
من السعة والشمول ما يصلح لكل البشر، وأن فيها من التطور والمرونة ما يقوم بكل جيل وفي كل عصر،
فلم تكن جهوده رحمة الله عليه¹⁰، في مجال التربية والتعليم بالمغرب مجرد ترف فكري، بل هي جهود مضيئة
ذات منهج مضبوط يرتقي إلى مستوى التجديد والاجتهاد، والتخطيط الاستراتيجي المقاصدي، بعيدا كل

¹ أستاذ باحث في علوم التربية والفكر الإسلامي. tougniabdelaziz@yahoo.com.

البعد عن الارتجالية والعبثية، فقد درس الكثير من العلوم دراسة متينة تلقيا وعطاء، وتأليفا وتدرسا، وتأثرا وتأثيرا، كنموذج من أحسن وأكمل نماذج الفكر الإصلاحي التربوي التعليمي المغربي في عصره - ومن خلال استقراء سفره الموسوم بـ "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"، الذي سنقف بتوفيق الله تعالى مع² وقفة تأمل واستبصار، ونسبح من خلال³ بفكرنا لاستكناه معالم الدرس التربوي التعليمي التي بسطها في فصول⁴ ومباحث⁵، باعتبارها حلقة الوصل ومربط الفرس في هذه المقالة البحثية، ومادتها التي سنسبر أغوارها بالدرس والتحليل والاستنباط. فبمن تأثر العلامة اليوسي رحمه الله؟ وهل كان له تأثير في غيره؟ وإلى أي حد استطاع الإمام اليوسي أن يسهم في تأصيل وإصلاح الفكر التربوي والتعليمي بالمغرب؟ وما هي أبرز المعالم التي ميزت مشروعه التربوي عن غيره من المشاريع الفكرية التربوية التعليمية في المغرب وخارجه؟ وإلى أي حد أسهم العلامة "اليوسي" في خدمة الدرس التربوي والتعليمي "منهجاً وتأليفاً وتأصيلاً وتوجيهاً"؟

1- ملامح من شخصية العلامة أبي الحسن اليوسي رحمه الله تعالى.

لقد عاصر أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040هـ-1102هـ) فترة عصيبة وحاسمة من تاريخ المغرب، ولحظات رهيبة وأحداثا اجتماعية خطيرة وانحرافات سلوكية حيث الفوضى والفتنة والاضطهاد والخراب والضعف.. والتطاحن والتصارع على الرئاسة من قبل القوى المختلفة المتواجدة في الميدان، "ويمكن أن نحصر حياة الإمام اليوسي بصفة عامة في ثلاث فترات؛

أولاً: الصبا والتكوين والتنقل لطلب العلم حتى أعوام الستين.

ثانياً: الاستقرار بالزاوية الدلائية من أعوام الستين حتى تخريبها سنة 1079هـ.

ثالثاً: ما بعد الزاوية الدلائية من 1079هـ إلى 1102هـ سنة وفاته. (2) ولعلها أهم فترة لفهم المشروع التربوي التعليمي والفكري الإصلاحي للرجل، لأنها عرفت شدة الاضطراب من حيات⁶ وصنعت شخصيته. إن الحديث عن شخصية الإمام أبي علي اليوسي في بعدها التربوي التعليمي من خلال مشروعه الفكري ومنهجه الإصلاحي، ليس بالسهل اليسير، وذلك لعلو كعب⁷ وعبقريته⁸ ومشاركته⁹ في شتى العلوم، ولما كانت¹⁰ وتميزه بين أقرانه¹¹، "عالم المغرب ونادته وصاعقته في سعة الملكة وفصاحة القلم واللسان مع الزعامة والإقدام والصدع بما يتراءى له وكثرة التصنيف على طريق بعد العهد بمثله، وهو الكلام المرسل

² - اليوسي، الحسن. رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1981م، 1/ ص 43.

الخالى عن النقل إلا ما لا بد منه" (3) فكان رحمه الله قامة علمية نفيسة وأيقونة فقهية مالكية متفردة، وشخصية منظرية مؤصلة محققة، أعجوبة الدهر ونادره العصر المعروف باجتهاداته⁴، منهجا وعلميا وضبطا وسلوكا "فهو آخر العلماء بل خاتمة الفحول من الرجال حتى كان بعض أشياخنا يقول: هو المجدد على رأس هذه المائة، لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه" (4)، ولذلك قال الإمام أبو سالم العياشي:

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه.

وقد استجاب الله دعوة شيخه⁵ في⁶ لما دعا قائلا: "اللهم اجعله عينا يستقي منها أهل المشرق وأهل المغرب" (5) فكان بحق حلقة وصل وواسطة عقد عظيمة بين سلفه⁷ وخلفه⁸، كما أنه أعطي فكريا تركيبيا، وقريحة وذكاء، جعله⁹ ينفذ إلى عمق ما يدرس من المسائل المطروحة، ويجعلها مطية لذكائه¹⁰ وفطنته¹¹ وعمله¹² ويستوعبها استيعاب الفاحص الناقد المتمكن. ببعد أخلاقي عرفاني مقاصدي يقول عن نفسه¹³ رحمه الله في فهرسته¹⁴: "وكانت قراءتي كلها فتحا ربانيا، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة، وفطنة ذكية، فكنت بأذني سماع، وأذني أخذ ينفعني الله" (6)

إلى جانب هذا فالرجل من أبرز من اهتم بالتربية والسلوك تصحيحا وتحسينا وتجويدا متبعا ومصلحا ومصححا على نهج المحجة البيضاء ونهج علماء السلف أمثال إمامنا مالك رضي الله عنه¹⁵، فيرى رحمه الله أن "الشريعة لها ظاهر هو للفقهاء، وباطن وهو للصوفية، وإنما يكمل الأمر بهما معا. ولهذا يقال: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، فمن أنكر هذا وجعله نجاسة أو جعل صاحبه داخلا في حزب الشياطين فقد أنكر الشريعة" (7) ومن ثم استطاع الفقيه¹⁶ اليوسي رحمه الله أن يجمع ما تفرق عند غيره، وأن يصل إلى مراده، جامعا بين الحقيقة والشريعة، وبين المنقول والمعقول داعيا إلى الجمع بين التفقه¹⁷ والتكلم¹⁸ والتصوف عالما عاملا، ويكفي أن نذكر مثالا لذلك قوله¹⁹ في رسالته²⁰ إلى أهل بلد كارت: "عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون،

³- الكتاني، عبد الحى. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982م، 2/ص 464.

⁴- ليفراني، محمد. صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء طبعة، 2004م، ص 208.

اليوسي، الحسن. المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حجي، منشورات دار المغرب، طبعة 1976م، ص 30 - 5

- اليوسي، الحسن. فهرسة اليوسي، تحقيق زكريا الخثيري، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 2009م، ص 129-138.

-رسالة (جواب الكتاب) الإمام اليوسي، ص 63.

ولا تكتفوا بعقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب"⁽⁸⁾.

كل هذا وغيره جعله محل أنظار وثقة الجميع، فلا تكاد تخلو تأليفه في الفقه المالكي، من ذكر نوازل وفتاواه وأجوبته السديدة، وشروحاته واختياراته الاجتهادية الفريدة، البعيدة كل البعد عن منهج التقليد والجمود، فظهر نجمه وعلا قدره في علم الشريعة والحقيقة؛ تأصيلاً وتصحيحاً، واجتهاداً وتجديداً، وفي علم التوحيد والكلام تحريراً وتحقيقاً وتنظيراً وشرحاً وتأليفاً وترجيحاً، وفي إصلاح المجال التربوي التعليمي والشؤون العامة، وأحوال المجتمع وتدينه توجيهاً وإرشاداً ونصحاء، داعياً إلى الجمع بين المنقول والمعقول، وبين التفقه والتكلم والتصوف عالماً عاملاً، وفق منهج أخلاقي وأصول أهل السنة المعتبرة، مُشَقِّعاً ذلك بالأدلة والأمثلة في نسق بديع لا يختلف مع الواقع الذي عاشه، من غير تكلف ولا تكلس ولا تحجير، حتى نعتّه البعض "بغزالي عصره".

وعلى الرغم من المعاناة القاسية والعداء والاضطهاد الذي لقيه، فقد استطاع الفقيه اليوسي خلال مدة أن يفرض نفسه ويبرهن بالملاموس على تضلعه في العلوم النقلية والعقلية، فأسس منهجاً اجتهادياً إصلاحياً تجديدياً أخلاقياً رصيناً، ومدرسة فكرية تربوية فريدة أصيلة توسع فيها وبرز وتصرف واجتهد، وأصبح أستاذاً فيها تخرج منها جيل من العلماء الكبار أخلصوا للحب والتقدير جاءوا من بعده أمثال: العلامة الحسن بن رحال المعداني ومحمد بن زاكور ومحمد بن عبد السلام البناني.. وغيرهم من الذين نقلوا أقواله واعتمدوا آراءه وصولاً إلى زماننا هذا، حتى قال فيه صاحب نشر المثنائي "... وكان صاحب الترجمة آية في المعقول والمنقول، واليه المرجع فيهما، وآية في النبل والإدراك..."⁽⁹⁾ ومن جملة المؤلفات التي ألفها رحمه الله والتي لا تخلو من فوائد جمة وآراء اجتهادية، تعتبر من صميم البحث قد حقق بعضها الباحثون، ومنها ما يحتاج إلى تحقيق، وهذه بعض منها نذكرها استئناساً وليس من باب الحصر:

- في التفسير: فتح الملك الوهاب فيما استشكل بعض الأصحاب من السنة والكتاب.
- في التوحيد: حاشية على شرح كبرى السنوسي. وشرحه للصغرى/رسائل في التوحيد.
- في الفقه: جل المؤلفات الفقهية لازالت مخطوطة في الخزانات العامة والخاصة وقد وقفت على أغلبها في انتظار تحقيقها مستقبلاً من لدن الباحثين ومن أبرزها:

8- اليوسي، الحسن. "رسالة الإمام اليوسي إلى أهل بلد كارت ضمن رسائل في التصوف"، تحقيق فاطمة خليل، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1981م، ج 2، ص

- القادري، محمد. نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبعة حجرية، 2/ ص 142. 9.

- 1- رسائل وفتاوى. 2- نوازل سيدي الحسن اليوسي. 3- شرح على شرح خليل. 4- منظومة فقهية على نسق متن ابن عاشر. 5- أجوبة فقهية متفرقة. 6- بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين وفروعه¹⁰.
- في أصول الفقه: الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي
- في الآداب واللغة وقواعدها: المحاضرات / ديوان شعر/زهر الاكم في الأمثال والحكم
- في التصوف والتربية: شرح عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني/
- القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم.
- في المنطق: نفائس الدرر على شرح المختصر للسنوسي.
- رسائل اليوسي: وتضمنت أربعة موضوعات كبرى:

1- الشؤون العامة، وأحوال المجتمع. 2- التصوف. 3- التوحيد. 4- الفقه¹¹.

2- 3- التعريف بكتاب "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"

لقد أطلق الإمام أبو علي الحسن اليوسي العنان لقلمه¹² الساحر المانع، ليحض على طلب العلم ونشره بكل الممكنات المتاحة، وحسن صحبة العلماء بنفس عرفاني مقاصدي، في رحلة علمية مريرة وطويلة، مليئة بالعطاء تأليفا وتدريسا، تأثرا وتأثيرا، نظما ونثرا، في شتى الفنون والعلوم، ولعل المؤلفات التي تركها خير شاهد على ذلك، حيث كان آخرها تأليفا كتاب¹³: "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"، الذي ضمنه عصارة فكره، وتصوره لمنطلقات وأسس المشروع الفكري الإصلاحي الذي آمن به¹⁴ ومات عليه¹⁵، على اعتبار أنه¹⁶ آخر ما خطه¹⁷ يمينه¹⁸، قبل أن يرحل إلى دار البقاء، فهو يعكس من خلال مباحث¹⁹ وفصول²⁰ «التطور الروحي والعاطفي الذي لقيه²¹ الإمام اليوسي رحمه الله في مضمار العلم ومتعلقات²²، وفي نفس الوقت جماعا لأشتاتها، وصيحة في سبيل الأخذ بأسبابها، تماما كما فعل الإمام ابن حزم الظاهري(ت:456هـ) في "الرسائل"، والإمام أبو بكر ابن العربي(ت:463هـ) في "الرحلة" و"العواصم من القواصم"، والحافظ ابن عبد البر القرطبي(ت:463هـ) في "جامع بيان العلم وفضله²³".⁽¹⁰⁾

ويعد كتاب "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم" من أجمل ما ألف²⁴ الإمام اليوسي في النثر، لما اجتمع فيه²⁵ من درر لطيفة، ونكت علمية مفيدة، وفوائد جمة في كافة العلوم الإسلامية، فحاز بذلك شرفا، ومكانة رفيعة إلى جانب المصادر الرفيعة المستوى في مجال التربية والتعليم، متأثرا فيمن جاء بعده من علماء المغرب الذين تبنوا أفكاره ومشروع²⁶ التربوي أمثال: العلامة الحسن بن رحال المعداني

¹⁰- اليوسي، الحسن. القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق وشرح وتعليق وفهرسة وتقديم، حميد حماني، مطبعة شالة الرباط، ط1، م 1998،

ص11.

ومحمد بن زاكور ومحمد بن عبد السلام البناني.. ومحمد كنون وإدريس الوزاني.. وغيرهم، وقد اختلف في تسمية هذا المؤلف، فهناك من أسماه بـ "قانون العلوم"⁽¹¹⁾ في حين أطلق عليه آخرون اسم "كتاب القانون"⁽¹²⁾ واسم "القانون في ابتداء العلوم"⁽¹³⁾ وأسماه جورج زيدان "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"⁽¹⁴⁾، وعلى الرغم من اختلاف التعبير في العناوين، يبقى المضمون والمقصد واحد ثابت لا يتغير، وهذا في دلالة وإشارة قوية -كما أكد ذلك عبد الله كنون وذكره في إحدى محاضراته- إلى سبق "المغاربة بوضع دوائر للمعارف العامة قبل أن يظهر هذا النوع من التأليف في العصر الحديث بقرون عديدة. ومن أحسن ما ينطبق عليه هذا الوصف. كتاب لأبي الحسن اليوسي (القانون في إحصاء العلوم وتفرعها) وما نشأ منها قديماً وما استنبط في الإسلام، واقتضاء الملة لكل ذلك. والمقارنة بالنظر الفلسفي بين العلوم العقلية والنقلية وتلخيص مطالب العلوم على اختلافها، مما يشبه في غايتها وطريقة بحثها كتاب (إحصاء العلوم) للفارابي، وما كتب ابن خلدون في المقدمة بهذا الصدد. وناهيك بفكر اليوسي الغواص العميق"⁽¹⁵⁾.

لخص الإمام اليوسي رحمه الله موضوع كتابه هذا في قوله: "فهذا بعون الله قانون، يشتمل على أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، وما يتعلق بشيء من ذلك على وجه الإشارة، والاختصار في العبارة"، ومن تم فهو يسير في مؤلفه هذا وفق منهج علمي رصين، ترتيباً وتبويباً، حيث أدرج تحت كل باب¹⁶ فصولاً، ويختتم كل فصل بخلاصة جامعة مانعة مأتعة بالفوائد والنكت العلمية المفيدة، وهكذا نهج في سائر الأبواب حتى نهاية المؤلف. مدعماً كلامه بإستشهادات واستدلالات؛ من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والشعر العربي، والحكم والأمثال الجارية على الألسن، ومن أمهات كتب التفسير، والحديث، والكلام، والفقه، واللغة، والطب، والحساب، والمنطق... مصرحاً بمصادره أحياناً، وملحاً بالإشارة في أحياناً أخرى، مهتدياً سنن من سبقه إلى التصنيف في العلوم الإسلامية من المتقدمين.

لقد انفرد كتابه "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم" بخصيصة قل ما يوجد بها رحم العلم، لكونه جاء مستوعباً لكل ما كتب في الموضوع، وجامعاً لكل ما تفرق عند غيره، فكان الإمام

¹¹ - البغدادي، إسماعيل. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، 1/ ص 296.

¹² - بروفنصال، ليفي. مؤرخو الشرفاء، تعريب: عبد القادر الخلافي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ص 191.

¹³ - كنون، عبد الله. النبوغ المغربي، الطبعة الثانية 1960 م، 1/ ص 320.

¹⁴ - زيدان، جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية القاهرة، 2012 م.

¹⁵ - مقتطف من محاضرة للأستاذ عبد الله كنون تحت عنوان "مساهمة المغرب في بناء الحضارة الإسلامية" (السبت 27 جمادى الآخرة 1403 هـ - 1983 م)

¹⁶ - ضمن الإمام اليوسي مؤلفه "القانون" ثلاث أبواب: الباب الأول: في أحكام العلم؛ يضم خمسة عشرة فصلاً والباب الثاني: في أحكام العالم؛ يضم ستة عشر فصلاً والباب الثالث: في أحكام المتعلم؛ يضم سبعة عشر فصلاً. ويشغل على هذا المؤلف

اليوسي بكتاب¹⁷ هذا، بحق حلقة وصل وواسطة عقد عظيمة بين سلف¹⁸ وخلف¹⁹ من أعلام العلم والمعرفة بالغرب الإسلامي، جعل²⁰ ينفذ إلى عمق ما يدرس من المسائل المطروحة، ويجعلها مطية لذكاء²¹ وفطنة²² وعمل²³ ويستوعبها استيعاب الفاحص الناقد المتمكن، ببعد تربوي تعليمي مقاصدي.

3- 4- معالم الدرس التربوي التعليمي عند أبي الحسن اليوسي من خلال كتابه "القانون في

أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"

تنبني فلسفة الدرس التربوي التعليمي عند الإمام اليوسي رحم²⁴ الله، من خلال كتاب²⁵ "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم" على رؤية استراتيجية حقيقية، تسعى في جوهرها إلى تحقيق أبعاد مقاصدية، تنشئ التكامل المعرفي بنفس أخلاقي منهجي راق.

لقد اعتبر الإمام اليوسي رحم²⁶ الله، "طلب العلم والاشتغال بالتعليم نوعا من الجهاد، بل هو الجهاد الثاني، بل هو أهم الجهادين، وذلك أن جهاد العدو مطلوب للدفع عن بيضة الإسلام، والعلم مطلوب لدفع الجهل عنهم، ثم إذا نظرنا وجدنا العدو لو تسلط على الأموال والرقاب، وهي أمور دنيوية لا بد من فراقها، إما بذلك أو غيره، والموعد الآخرة لو تسلط الجهل عياذا بالله، لم تبق عقيدة صحيحة، ولا إيمان ولا عمل صالح، وهذا هو الهلاك الأبدي، الذي يستمر إلى الآخرة"⁽¹⁷⁾.

ومن خلال استقراء فصول كتاب²⁷ "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم" واستنطاق مباحث²⁸، وتلمس أبرز معالم الدرس التربوي التعليمي عند الإمام اليوسي رحم²⁹ الله، يمكن تحديد بعضا من معالم الدرس التربوي التعليمي عند الإمام اليوسي رحم³⁰ الله، وذلك من خلال العناصر الثلاثة الرئيسة في نجاح أي عملية تربوية تعليمية تعليمية، أو كما يصطلح علي³¹ اليوم بـ "المثلث البيداغوجي":

أ- من معالم الدرس التربوي التعليمي عند الإمام اليوسي في تصوره للعلم والتعلم.

حاول العلامة اليوسي أن يشرح ماهية العلم لغة وعرفا، مع بيان فضل³² ومنزلت³³ وذكر أهم أنواع³⁴ وتقسيمات³⁵ ومدارك³⁶ الثلاثة، التي تدل دلالة قاطعة على تكامل وتقاطع العلوم والمعارف وليس التنافر كما هو حال المعرفة في المنظومة التربوية اليوم، مميزا بين المشاهدات والفطريات والبدهييات، معتبرا المحسوسات حجة، والوجدانيات ليست بحجة، وأن " العلم كلاً³⁷ بالقياس إلى الجهل، شرف لصاحب³⁸ وكمال، ثم يكون لفنونا³⁹ شرف من جهة أخرى، يقع بها التفاوت، فقد يكون من جهة الموضوع كالطب، إذ

17- اليوسي، الحسن. رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1981م، 1/ ص 138.

موضوعه¹⁸ الإنسان، وهو أشرف ما في الكون، ومن جهة الغاية كعلم الأخلاق، ومن جهة ميسر الحاجة كالفقه¹⁹، ومن جهة الجميع، وهو أبلغ في الشرف كالإلهي على ما مر، وكذا علم التفسير²⁰ ولا بد لكل علم من غاية، يحدها متعاطي²¹، ويتبجح بها، ولو لا ذلك لم يشتغل به²²، غير أن ذلك قد يكون حقيقيا وقد يكون إضافيا، فيكون له²³ كمال بحسب ما دون²⁴، ونقصان بحسب ما فوق²⁵. وقد يستنقص العلم، أو يظن أنه²⁶ غير نافع، أو غير ضار، خطأ في حده أو في رتبته²⁷ أو في غرضه²⁸، كأن يظن بالطب أنه²⁹ يبرئ كل مرض، ومن الأمراض مالا يبرأ، أو بالفقه³⁰ أنه³¹ أشرف العلوم، مع أن علم التوحيد أشرف من³²، أو يقصد به³³ غير غايته³⁴، كطلب المال والجاه مثلا، مع أن قاصد هذا غير عالم على التحقيق بل متشب³⁵.

ب- من معالم الدرس التربوي التعليمي عند الإمام اليوسي في تصوره للمعلم المربي.

يحظى العالم- المربي المعلم- في الفكر التربوي التعليمي للإمام اليوسي بمكانة شريفة، لشرف وعظم المهمة التي انتدب نفسه³⁶ لها؛ مهمة التدريس وتربية النشء على الأخلاق والقيم وتعليمهم العلم الجامع المانع المانع في أصل³⁷ ومنطلق³⁸ ومقصده، وهي مهمة ومهنة الأنبياء والرسل عليهم السلام من قبل، وإمامنا وقودتنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، سيد المرسلين المربي الرحيم والمعلم الحكيم، الذي قال الله تعالى في شأن³⁹: "هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته⁴⁰ ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" (سورة الجمعة: الآية 2) حقا وصدقا إنها لأشرف وأسمى وأرقى مهنة إن خلصت النية، وتحلى العالم المربي "المدرس" بأداب في نفسه⁴¹، وفي طرق تدريس⁴² وتفنن وأبداع في التلقين والإفتاء والتصنيف وتواضع...، ومما يلفت الانتباه؛ نجابة ونباهة الرجل لما ذم رحمه⁴³ الله، العالم والمربي الذي يخالط الأمراء الظلمة والمفسدين المستبدين، لما قد يحدث من آثار وفتنة تنعكس سلبا على نفسيته⁴⁴، وتزعزع استقرار ملكته⁴⁵ العلمية والفكرية، مستدلا على رأيه⁴⁶ هذا بحديث يروي⁴⁷ سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه⁴⁸، عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه⁴⁹ قال: "من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن"⁵⁰، وأورد الفقيه⁵¹ اليوسي رحمه⁵² الله في كتابه⁵³ القانون كلاما حكيما ينم على موسوعيته⁵⁴ وقوة شخصيته⁵⁵ لما قال: "خير الأمراء الزوارون للعلماء، وشر العلماء الزوارون للأمراء" وقال أيضا: "شر الأمراء أبعدهم من العلماء، وشر العلماء أقربهم من الأمراء"⁵⁶ (19)

¹⁸- أخرج الإمام أحمد في مسند بني هشام، وأخرج الإمام النسائي في كتاب الصيد والذبايح، باب إتباع الصيد.

¹⁹- اليوسي، الحسن. القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق وشرح وتعليق وفهرسة وتقديم، حميد حماني، مطبعة شالة الرباط، ط 1998، م 1.

ص 358.

بالمقابل أبرز الفقيه²⁰ اليوسي رحمه الله فضل المعلم المربي ودوام عمله²¹ بعد موت²²، لا تنقطع بركته²³ كما ورد في الحديث النبوي الشريف: "ثلاث تنال المومن بعد وفاته²⁴: الولد الصالح يدعو من بعد وفاته²⁵، فينال²⁶ أجر دعائه²⁷، والرجل يترك الصدقة في الموضع الصالح فتنفذ لوجهها، والرجل يعلم العلم الصالح فينتهي²⁸ عن المعاصي"، وقال الحكماء: "علم الرجل ولده المخلف"²⁹، وحتى ينتفع المتعلمون ويحصل المراد ينبغي للمدرس أمور، في مقدمتها أن³⁰ إذا خرج إلى مجلس³¹ أو فصل³² الدراسي "أن يتطهر من الحدث والخبث، ويتنظف ويلبس أحسن ثياب³³، مما يليق نوع³⁴ بمثل³⁵ في زمانه³⁶ وبلده، قاصدا بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة، لا رياء ولا فخرا ولا سرفا، ويختلف الحال باليسار والوقت، ولا بد أن يختلف أيضا بالقصد والحال، فمن الناس من يغلب عليه³⁷ حال العلم والمعرفة فينبسط، ومن يغلب عليه³⁸ حال الخوف والورع فينقبض ويتقشف، والكل على هدى من الله"³⁹ (21) كلام نفيس ما أحوج المدرس والمربي المغربي اليوم إلى قراءته⁴⁰ وفهم⁴¹ واستيعاب⁴²، خصوصا في ظل الوضع الكارثي المتأزم الذي تعيش⁴³ منظومتنا التربوية اليوم، فعن الاستعجال والارتجال لا تسأل بل حدث ولا حرج، أمام المتغيرات المعاصرة المتسارعة التي يواجهها مدرس اليوم والذي ينبغي له⁴⁴ أن "يستحضر نية صالحة في بث العلم، وبيان فوائده، وتبليغ أحكام الله تعالى إلى عباده، والإعانة على الدين، وتنمية غرس العلم، وحياطته⁴⁵ عن شبهات الضالين وتخليط الجاهلين، ونحو هذا من المقاصد الحسنة، وليستعيز بالله من النية الفاسدة، والمقاصد الخسيسة"⁴⁶ (22)

ج- من معالم الدرس التربوي التعليمي عند الإمام اليوسي في تصوره للمتعلم.

المتعلم هو الحلقة الأهم في العملية التعليمية التعلمية، بل لها وعليه⁴⁷ ينبغي أن تقوم حتى تتحقق الكفايات المطلوبة، وتسهم بشكل فعال في رقي المتعلم وجعله⁴⁸ صالحا في نفسه⁴⁹ ومجمعه⁵⁰، وهذا لا يتأتى في نظر اليوسي، إلا إذا كان المتعلم متأدبا في نفسه⁵¹ أولا، ومع أستاذه ثانيا أخذا وعطاء، لا كما هو السائد اليوم في مؤسساتنا التربوية، التي أغرقت في مستنقع العنف بكل أشكال⁵²، وأصبحت عرضة لكل أشكال التغريب والتهجين والتخدير والخلاعة والميوعة... ولا يكمن القطع مع هذه السلوكات المشينة والحد منها إلا بتظافر جهود كل العناصر المساهمة في الفعل التربوي بهذا البلد الحبيب تصورا وتنظيما وحقيقة لا تخبطا وخيالا وأمالا.. أسرة ومدرسة ومسجدا وإعلاما ومجتمعيا بجميع هيئات⁵³ ومؤسسات⁵⁴ رأسا وجسدا، مع التشجيع الدائم للناشئة على تعاطي العلم من المهد إلى اللحد والصبر في ذلك على الجهد والمتاعب واقتحام العقبة،

²⁰- نفسه، ص 362.

²¹- نفسه، ص 330.

²²- اليوسي، الحسن. القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق وشرح وتعليق وفهرسة وتقديم، حميد حماني، مطبعة شالة الرباط، ط 1998، ص 1.

ص 131.

وتعليمهم بأن مفتاح العلم؛ السؤال. وقد روي أن رجلا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم أصاب²³ جرح، فأصاب²⁴ احتلام، فأمر بالاعتسال فمات، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قتلوه قتلهم الله ألم يكن شفاء العي السؤال "وقال بعض السلف: "العلم خزانة مفتاحها السؤال"، وعن ابن مسعود رضي الله عنه²⁵ قال: "زيادة العلم الابتغاء، ودرك العلم السؤال، فتعلم ما جهلت، واعمل بما علمت" (23) وأنشد الأصمعي بيتا جميلا في الإلحاح على طلب العلم: شفاء العي طول السؤال وإنما تمام العي طول السكوت على الجهل

وقال آخر: ألا أيها الناس إنما سألت ومن يسأل يعلم

سؤال امرئ لم يعقل العلم صدره وما للسائل الواعي الأحاديث كالعي

وقال غيره: إذا كنت لا تدري ولم تك بالذي يسائل من يدري فكيف إذن تدري

وسل الفقيه²⁶ تكن فقها مثله²⁷ من يسع في علم بفقه²⁸ يمهـر

وقال الخليل بن أحمد: "الجهل منزلة بين الحياء والأنفة". ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه²⁹ قال: "ويل لمن يعلم ولا يعمل مرتين، وويل ثم ويل لمن لا يعلم ولا يتعلم" (24) وقال بعض السلف: "ميراث العلم خير من ميراث الذهب والفضة، والنفس الصالحة خير من اللؤلؤ، ولا يستطاع العلم براحة الجسم" (25)

ومن الإمام اليوسي -المدرسة والآداب والدرس التربوي- نتعلم، وهو في صحبة أستاذه ابن ناصر الدرعي التمكروتي، الذي استجاب الله دعوت³⁰ في³¹ لما دعا³² قائلا: "اللهم اجعل³³ عينا يستقي منها أهل المشرق وأهل المغرب" (26) فكانت نعم الصحبة "و الصحبة مفتاح" كما أخبر بذلك المعلم المربي علي³⁴ أفضل الصلاة وأزكى التسليم. يقول اليوسي رحمه³⁵ الله عن نفسه³⁶: "كنت أيام صحبة أستاذنا الإمام أبي عبد الله تعالى، تنازعني نفسي إلى التجرد والسياسة، وترك التعليم، وكان لا يرى ذلك، فقلت ل³⁷ يوما: أيها أفضل العلم أم المعرفة؟ قال: "المعرفة، فقلت ل³⁸: فلم لا نشتغل بأسبابهما؟ قال: المعرفة قسمة، من قسم ل³⁹ شيء يأتي⁴⁰، وما رأيت في هذا الزمان أفضل من تعليم العلم" (27)

²³ عن عبدالله بن عباس في السنن الكبرى للبيهقي 227/1

²⁵ اليوسي، الحسن. القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق وشرح وتعليق وفهرسة وتقديم، حميد حماني، مطبعة شالة الرباط، ط 1998، م، ص 414.

²⁶ - محمد بن ناصر الدرعي في دعاء لليوسي، المحاضرات، ص 30 ط حجرية.

²⁷ اليوسي، الحسن. القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق وشرح وتعليق وفهرسة وتقديم، حميد حماني، مطبعة شالة الرباط، ط 1998، م، ص 452.

خاتمة:

إن القارئ المتأمل للمشروع التربوي التعليمي الذي أثله العلامة اليوسي رحمه الله، وما ترك من تراث زاخر جادت به قريحته أغنى المكتبة المغربية والعربية في جل العلوم والتخصصات. ليجد نفسه بحق أمام "أحد أعلام المعرفة الكبار، الذي يعتز ويفتخر به الفكر المغربي الأصيل، لشمولية علمه، ورحابة معرفته، وتفتح ذهنه وحدة نباهته، وتمسكه بالمبادئ الإسلامية والوطنية، وإخلاصه لرسالة العلم المثلى، التي نهت إلى مدرسة ذات طابع متميز في التفكير والمنهج، وهي ظاهرة من الطاقة المتجددة حركت الفكر المغربي، ووثبت به إلى مناخ نشيط مبتغى"⁽²⁸⁾

إننا اليوم في أمس الحاجة من أي وقت مضى إلى إبراز التراث التربوي المغربي عامة، ومشروع العلامة اليوسي التربوي وآراءه الإصلاحية التعليمية خاصة، التي ضمنها في مؤلفه الفريد، وبينها في مشروعه الفكري، عبر دراسة واعية ورؤية استراتيجية حقيقية، بهدف استشراف المستقبل، اقتناعا منا بأهميته التي لا يماري فيها أحد في تصحيح مسار مسلسل الإصلاح الذي عرفت منظومتنا التربوية ولا زالت وتجديد ألياتها، في ظل التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم اليوم بنفس منهاجي مقاصدي

²⁸- مجلة المناهل المغربية، العدد 15 خاص بالإمام اليوسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، المغرب/ سنة 1979م، ص 11.